

كتابان على مكتب رئيس مصر القادم (1- 2)

بقلم : رائف محمد الويشي

20 أبريل 2012



مصر ستدخل عرسا ديمقراطيا في يومى 23 / 24 مايو الجاري لاختيار رئيسها القادم ، المذاق مختلفا لأول مرة في تاريخ مصر ، سواء القديم منه أو الحديث ، لأن دماء شباب مصر في كل شوارعها هي التي دفعت الثمن لهذا العرس .. التحديات كبيرة ، والمشاكل معقدة ومتشابكة ومركبة ، والموارد محدودة ، والأعداء كثر ومتربصون ، والمنافقون ينتشرون في كل الصفوف ، وأمنيات وآمال القاعدة عريضة ، ومخاوف النخبة عالية ويحكمها التاريخ وما يجرى على الأرض ومن وراء الكواليس ..

هناك كتابان انصح رئيس مصر القادم بأن يتصفح فيهما ليأخذ العبر ، كي يجنب نفسه - ومصر معه - شر الوقوع فيما لا تحمد عقباه ، أولهما يتناول الشأن الداخلي ، والآخر يركز على العلاقات الخارجية ..

سنتناول في هذه الحلقة الأولى من الدراسة كتابا يتناول فريق المطبخ الرئاسي ، أي أولئك الذين يحيطون بالرئيس ، سيكون ذلك من خلال كتاب " الأسرار الشخصية للرئيس جمال عبد الناصر " .. مؤلف الكتاب هو الكاتب الصحفي ضياء الدين بيبرس ، وهو لم يكن تأليفا بالمعنى المعروف للكلمة ، بل كان نقلا للأشرطة التسجيلية التي سجل فيها السكرتير الشخصي للرئيس عبد الناصر - الأستاذ محمود الجيار - كلامه في جلسات مع الأستاذ بيبرس

لابد أن نعطي أولا فكرة موجزة عن الأستاذ محمود الجيار ، فهو أحد الضباط الأحرار في سلاح المشاة في ثورة 23 يوليو ، وكان يتبع خلية الرائد عبد الحكيم عامر ، كما أنه من عائلة ميسورة الحال تعمل بالزراعة في مدينة الإخماس بالخطاطبة ، وقد عمل والد الرئيس عبد الناصر في المكتب البريدي التابع للإخماس وكان محل رعاية والد محمود الجيار ، أي أن العلاقات كانت عائلية وتسبق تاريخ الثورة .. محمود الجيار ظل السكرتير الشخصي للرئيس عبد الناصر حتى رحيل الرئيس في 28 سبتمبر 1970 ، وكان أول من يرى عبد الناصر في الصباح ، وآخر من يراه قبل ذهابه إلى غرفة نومه ، وقد صدر الكتاب في عام 1976 ..

الكتاب بصورة عامة يتناول آلام عبد الناصر مع فريق العمل من حوله ، فهناك المنافقون ، وهناك الشلل التي تنتشر حول الرئيس لتحقيق مصالح شخصية ، وهناك الحاقدون ، وهناك أيضا المخلصون .. ولا شك أن هذه المجموعات المختلفة ستكون أيضا حول رئيس مصر القادم ، ومن هنا يتضح الغرض من هذه الدراسة ..

في ص 26 : يقول الأستاذ محمود الجيار أن الرئيس عبد الناصر كلفه بتولي إدارة تنقل له ما يقوله الناس لأن الأجهزة الأمنية لم تكن تفعل ذلك بأمانة ، فيقول أن الرئيس عبد الناصر قال له ما يلي :

" الأجهزة الأمنية السرية والعلنية لا تنقل لي حقيقة ما يقوله الناس ، والأجهزة التنفيذية لا تصارحني بمتاعب الناس ، أريد أن أظل على اتصال مباشر بالناس ، وهذه ستكون مهمتك ، أريدك أن تكون موصلا جيدا لا عازلا ، أريد أن أعرف كل الأفكار والشتائم التي تحتويها خطابات الناس ، واحذر أن تخفى عنى شيئا مهما بلغت حرارته " ... يضيف الجيار ما يلي : " تعليماته كانت واضحة وهى أن يعرض عليه يوميا ملخصا لأي خطاب هام أو عاجل أو به فكرة لامعة أو خبر خطير ... كان أصحاب الرسائل يكتبون في رسائلهم : إذا لاقت روايتي اهتماما منك يا سيادة الرئيس ، فإنني مستعد لذكر التفاصيل بشرط أن تنتظرني سيارة من رئاسة الجمهورية بالمكان كذا والساعة كذا ، وأحيانا يقولون : بشرط نشر إعلان بالأهرام بالصيغة كذا في يوم كذا ، وسأرسل لك يا سيادة الرئيس بكافة التفاصيل " ..

في ص 27 / 28 / 116 يذكر محمود الجيار في هذا الشأن روايات عديدة تبين أسلوب الاتصال المباشر بين الرئيس والمواطنين :

الرواية الأولى ومفادها التالي : " كلف الرئيس أحد معاونين بأن يذهب بسيارة من الرئاسة لينتظر بجوار مستشفى ما ليتسلم رسالة من شخص ما ، بينما بدأ المعاون في التحرك بالسيارة صاح فيه الرئيس " أنا جى معاك " ، جلس الرئيس في الكرسي الخلفي وأنزل الستائر وتحركت السيارة بهما فقط ودون أي حراسة ، جاء المواطن ليسلم المعاون الوثائق التي معه ، لكن المعاون طلب منه الجلوس في المقعد الخلفي ، ما أن فتح الباب ليجلس حتى رأى الرئيس عبد الناصر جالسا وطلب منه بابتسامة هادئة الجلوس بجواره " ..

الرواية الثانية ومفادها التالي : " جاءت رسالة من مواطن مثقف تناول فيها قضية كانت تشغل الرئيس وذكر تفاصيل كثيرة وقال " إذا رغبت يا سيادة الرئيس في لقائي لمعرفة المزيد فأرجو نشر إعلان في الأهرام بالصيغة التالية " إلى ولدنا أحمد ، أكتب لوالدك وسيهتم بطلباتك ، جميل ".... طلب الرئيس مني أن أكتب إعلانا في الأهرام بالصيغة التالية : إلى ولدنا أحمد ، لماذا لا تحاول أن ترى والدك شخصيا بدلا من أن تكتب إليه ، هو سيهتم بطلباتك ، جميل ... في مساء يوم الإعلان وصلت رسالة إلى الرئاسة تقول : ولدكم أحمد يا سيادة الرئيس ينتظر تحديد موعد للقاء معه .. قابل الرئيس المواطن وكان أستاذا متبحرا في السياسات المالية وعينه وزيرا بعد أيام " ..

الرواية الثالثة ومفادها التالي : " في عام 1955 ذهب عبد الناصر إلى مجلس الإنتاج القومي ، هناك وقف شاب مهندس ليشرح له العمل هناك ، وأثناء الشرح أبدى الرئيس بعض الملاحظات إلا أن الشاب عارضه فيها ، وهو ما سبب حرجا وقلقا بين الحاضرين ، بعد أسبوعين كان هذا الشاب برتبة وزير ، وهو المهندس عزيز صدقي أبو الصناعة المصرية الحديثة " ..

الرواية الرابعة ومفادها التالي : " كارثة دودة القطن في سبتمبر 1961 جعلت المواطنين يرسلون شكاوى إلى رئاسة الجمهورية لعدم تمكنهم من دفع رسوم المدارس ، أصدر الرئيس على الفور قرارا جمهوريا بتخفيض تلك الرسوم ، ثم تبعه بقرار آخر بإلغائها " ..

ننتقل مع الأستاذ محمود الجبار إلى ص 78 ، وتحديدًا في يوليو 1970 ، ونذهب إلى المقر العلاجي " تسخالطوبو " في موسكو .. التاريخ يبين أن عبد الناصر كان قد تخلص من عبد الحكيم عامر وجماعته بعد كارثة 1967 ، هكذا كنا نزن كباحثين ، لكن الأمر طبقا لما رواه الأستاذ الجبار لم يكن كذلك ، فقد تكونت جماعات أخرى بعد النكسة ، يحدث ذلك بينما كان زهرة شباب مصر يقدمون الدماء بصورة يومية في حرب استنزافية حامية الوطيس ، لنقرأ القصة التالية :

" الرئيس عبد الناصر قال لي في موسكو بأنه لم يعد يدهشه شيء في العلاقات الإنسانية ، فعبد الحكيم عامر الذي كان توأمه الروحي حاول الانقلاب عليه ، والمقاومة الفلسطينية التي قدم لها شبابه وكل الإمداد والدعم تصفه بالخائن ، والوزراء في مصر يتشحنون دائما فيما بينهم بالرغم مما يجرى على الجبهة بصورة يومية ، لقد كانت الجملة التي كانت في فم الرئيس هي : عليهم أن يجهزوا استقلالهم ، لقد كان يود القيام بانقلاب جديد داخل مصر بمجرد عودته من رحلته العلاجية " ..

في ص 84 يذكر الأستاذ محمود الجبار نفوذ الجماعة المحيطة بالرئيس بعد الخلاص من جماعة عبد الحكيم عامر ، فيقول ما يلي :

" بلغ من نفوذ هذه الجماعة وسيطرتها ، أن عبد الناصر أصدر قرارات جمهورية لم تنفذ ، وأن قرارات لم يسمع بها نفذت دون علمه أو عرف بها بعد تنفيذها ، وأن كثيرين اعتقلوا وخرجوا من المعتقل دون علمه ، رغم أن أوامر الاعتقال كان مفروضا أنها صادرة باسمه وتوقيعه ... كانت أيام علاج عبد الناصر في " تسخالطوبو " فوق طاقة البشر ، ولم تكن كلها آلام جسدية ، ومع أنه استعاد بعدها بعض صحته الجسدية والنفسية ، إلا أنه لم يعد نفس الرجل ، وقد أدرك ذلك الطامعون من أقرب معاونيه ، ومن بعض زملائه القدامى ، وجرى نوع من التفاهم بين الجانبين على الاستفادة من الفرصة ، لكن الأعوان كانوا هم الفائزون بنصيب الأسد وأخذوا السلطة تقريبا كلها في أيديهم ، لقد تفاقمت الأمور إلى الحد الذي دفع عبد الناصر رغم ألمه وانهايار صحته ، إلى التخطيط لإحداث تغيير شامل في نظام الحكم ، وهو عمل كان أقرب إلى التخطيط لثورة جديدة " ..

في ص 94 يبين الأستاذ محمود الجبار سلوكيات أعضاء المطبخ السياسي الذين كانوا حول الرئيس بعد النكسة ، فيقول ما يلي :

" جميع أجهزة المعلومات كانت في أيديهم ، كانت لهم أيضا أجهزة خاصة بكل منهم ، وكانوا يسجلون مكالمات بعضهم البعض ، ويتجسسون على بعضهم البعض ، هكذا كانت رغبة عبد الناصر في أحداث ثورة جديدة " ..

في ص 150 / 152 / 153 يعطى الأستاذ محمود الجبار بعض خبراته إلى القارئ عن أعضاء المطبخ السياسي المحيطين بأبي رئيس ، فيقول ما يلي :

" المواطن العادي يتصور أن الحاكم يعرف ويملك كل شيء ، وأن سلطاته مطلقة على الناس ، لكن الحقيقة أن السلطة دائما نسبية ، وكذلك معرفة الحاكم بما يجرى... التسوية من أهم الأسلحة التي يلجأ إليها الراغبون في ممارسة السلطة من وراء الحاكم الشرعي ، فالقرارات التي لا تروق لهم لا يرفضونها بصراحة ، وإنما يبتكرون الأعذار لإبقائها لتكون مشاريع على الورق ، وإلى جانب التسوية يوجد سلاح آخر ، وهو التخويف ، تخويف الحاكم من الشعب أو من المعلومات السرية التي يدعون أنهم يملكونها وعلى علم بها " ..

ويدلل الأستاذ محمود الجيار على ما يقول بذكره ثلاث روايات :

الرواية الأولى وتبين رغبة عبد الناصر في إحداث بعض الديمقراطية فيقول : " كانت نية عبد الناصر في أن يصدر قانونا يجعل رئيس الإتحاد القومي المنتخب بكل محافظة يتولى منصب المحافظ ، كان يعتبر أن هذه خطوة ديمقراطية ليحكم كل محافظة رجل اختياره أهلها ، لو حدث ذلك لكانت مصر تتمتع الآن بحكم حلى حقيقي ، لكن رفاقه قتلوا القانون في مهده ، فقد زعموا أن تولية محافظ منتخب من أهل المحافظة سيجعله يميل إلى عائلته ضد العائلات الأخرى ، وقد يتطور الأمر إلى نزاع مسلح ، فمات القرار قبل أن يولد " ..

الرواية الثانية تبين قيام أعضاء المطبخ السياسي بحجب المعلومات التي لا يطلبها الحاكم فيقول : " كلما طلب عبد الناصر تقريرا عن عمل وزارة ما ، أو عن أرقام الإنتاج في مصنع ما ، أو عن كمية محصول ما من المحاصيل ، كانوا يقدمون له الأرقام والمعلومات التي ترضيه وليست الحقيقية .. لقد ضج عبد الناصر علنا من هذه الأسلوب وفي أحد خطابات أعياد الثورة أمام الملايين ، فقال : طلبت من إحدى الوزارات تقريرا في موضوع معين وكررت الطلب مرتين ، وجاءني تقريران كل منهما عكس الآخر ، ثم سألت سوآلا واحدا إلى ثلاث وزارات ، فجاءتني ثلاثة إجابات مختلفة تماما ، يعنى أنا عاوز أقول .. أصدق مين ، ولا أعمل إيه؟! " ..

الرواية الثالثة تبين حجم الخداع الذي يمكن أن يتعرض له رئيس مصر ، فيقول : " كان الرئيس يهتم بالأرز كمحصول تصديري ممتاز ، وقد أخبره على صبري بأنه حقق إنجازا كبيرا في كفر الشيخ بزراعة 3 آلاف فدان بالأرز ، في زيارة الرئيس إلى بور سعيد أراد أن يتوقف في كفر الشيخ ليرى بعينه ذلك .. من المعروف أن شتلات الدنيبة تختلط مع شتلات الأرز ، وعلى الفلاح أن يتخلص من شتلات الدنيبة ، قبل زيارة الرئيس اكتشفوا أن الأرض في كفر الشيخ ليس بها شتلات أرز كافية ، فقاموا بنزع كل الكمية ووضعوا بدلا منه شتلات دنيبة ، كي تبدو أمام الرئيس وكأنها شتلات أرز ، أي أنهم دمروا كل الكمية ليحصلوا على إنجاز لم يتحقق) ..

النتيجة هي أن عبد الناصر قد أصابه الإحباط والمرض (قلب - سكري - ضغط - تصلب وانسداد الشرايين) من جراء أفعال التنازل والتعالب والتعابين والعقارب التي تعمل معه ، وهي نفس المجموعة التي كانت تعمل مع من كان قبله ومن جاء من بعده ، وأغلب الظن أنهم سيتواجدون حتما في إدارة الرئيس القادم ، فهم يعيشون بيننا ، نشاهدهم في كل المستويات الوظيفية والاجتماعية ..

في ص 87 / 88 يروى لنا الأستاذ محمود الجيار بعض الملاحظات عن صحة الرئيس ، فيقول ما يلي :

" أم عبد الناصر لم تكن عادية ، لأن مرضه لم يكن عاديا ، كان الجير في دمه يتسرب بين عظام العمود الفقري واللحم فيغلقها ويسبب آلاما مبرحة ، كان ذلك يجعله عاجزا على الجلوس أو الوقوف لأكثر من ثلاث دقائق ، عندما ذهبت معه في رحلة علاجه في موسكو بكيت عندما رأته ينزل من السيارة ، فقد مد ساقه أولا ثم زحف ليهبط من المقعد ثم عجز عن الاستمرار ، أسرعت إليه لمساعدته وأنا لا أصدق عيني ، بعدها انتهزت أول فرصة وخلوت إلى نفسي لأبكي براحتي ، وزاد من تعاستي ما شاهدت من آلام بعد ذلك ، ما زلت أذكر هذا اليوم الذي قال لي وهو في قمة ألمه : أنا ما ينفعنش دكتور يا جدع ، شوف لي واحد نجار يخلع المسامير اللي في ضهري لقد كان العلاج الأساسي الذي يستخدمه السوفييت لإذابة هذا الجير اللعين هو الحمامات ذات الإشعاع ، لقد كانت خطوات عبد الناصر ترغمنا على أن نجرى وراءه لنلحق به ، أما الآن فقد أصبحنا نهدي من خطوتنا كثيرا جدا " ..

في نهاية هذه الحلقة ربما يكون من المناسب أن نذكر مشهدين من مذكرات الطبيب الخاص للرئيس عبد الناصر ، وهو د. الصاوي حبيب والتي قرر كتابتها في عام 2006 :

المشهد الأول يبين عبد الناصر الإنسان ، فيقول فيه ما يلي : " عبد الناصر لم يستطع تنفيذ توصيات الأطباء بضرورة الراحة لأنه كان يعيش في جو من العمل والإرهاق الدائمين ، كان يبذل جهداً أكبر من طاقته في المرور على القوات في الجبهة ومتابعة تفاصيل إعدادها وإعداد الدولة للحرب ومتابعة عمليات قوات الصاعقة خلف خطوط العدو.. في هذه الظروف كانت الراحة مستحيلة ، وحين كنت أكرر عليه أهمية الراحة كان يقول : إذا فكرت في الراحة فلا بد أن أترك هذه الوظيفة! وبعد ذلك جاءت تطورات المعارك والسياسة لتضاعف مجهوده البدني والذهني .. كنت ألاحظ دائماً أنه يتحامل على نفسه ويسيطر على انفعالاته ، فلا تظهر على وجهه أو في تصرفاته آثار الانفعال أو الغضب ، وكان يغفر الأخطاء التي يعرف أنها غير مقصودة وليست نتيجة إهمال ، ففي أثناء وجوده في الإسكندرية في صيف 68 أعطيته في الليل قرصاً يساعده على النوم ، وفي الصباح عند الكشف اليومي عليه سألته إن كان قد نام جيداً، فقال لي : أبداً ، وحكي أنه استيقظ في الثانية صباحاً على رنين التليفون المجاور لسريه فاستيقظ متوقفاً أن يكون قد وقع حادث هام ، ولكن تبين أن موظف السويتش أخطأ فحوّل إلى غرفته مكالمة خارجية كانت لضابط الحراسة المناوب ، توقعت أن يثور عبد الناصر لهذا الإزعاج وربما يدفعه الغضب إلى طلب معاقبة موظف السويتش ، ولكن لم يحدث شيء من ذلك ومررت المسألة وكان شيئاً لم يحدث .. طوال السنوات التي كنت

فيها قريباً جداً من عبد الناصر لم أسمع صوته منفعلاً ، ولم أسمع أنه عاقب أو أمر بإبعاد أحد ممن كانوا يعملون معه ، ولكنه كان بالتأكيد يشعر بالغضب والانفعال لأسباب كثيرة في مجالات السياسة والإعداد للحرب ..

المشهد الثاني يبين عبد الناصر الضحية الذي لم يتوقف عن العطاء حتى آخر دقيقة من حياته ، فيقول فيه ما يلي : " عاد الرئيس من المطار بعد توديع أمير الكويت متعباً ، فاستدعاني ، وقال لي إنه يشعر بتعب أثناء توديعه وأحس أن قدميه تكادان لا تقويان على حمله ، وعند فحصه لاحظت وجود عرق بارد وشحوب ونبض سريع فأحسست بخطورة الموقف ، طلبت من السكرتارية استدعاء د. منصور فايز ود. زكي الرملي ، أخذ د. منصور فايز يحادثه عن رغبته في زيارة الجنود على الجبهة ود. زكي يرقب الموقف عن كثب ، ولم أكن أتابع الحديث فقد كنت أفكر في الوضع الصعب الذي نحن فيه ووجدته يعتدل قليلاً ليفتح الراديو الموجود على الكومودينو بجوار السرير ، وقال إنه يرغب في سماع خبر في نشرة أخبار الخامسة التي كانت قد بدأت منذ قليل ، ولم يذكر هذا الخبر ، ولم يعرفه أحد حتى الآن ، وظل يصغي إلى نشرة الأخبار حتى انتهت ، وطلبت منه ألا يتحرك وأن يستريح ، وكان قد أغلق جهاز الراديو ورد قائلاً : " أنا استريحت يا صاوي " وفوجئت برأسه يميل إلى الجانب فجأة ، واستراح جمال عبد الناصر كما جاء في آخر عبارة قالها " ..

على الرئيس القادم أن يتوخى الحذر في طعامه ، فالثابت أن زيارات عبد الناصر إلى منزل أنور السادات منذ منتصف الستينات وحتى وفاته لم تتوقف وبصورة أسبوعية ، وقد زادت بعد أن ولاة نائباً لرئيس الجمهورية في 20 ديسمبر 1969 ، ولم يكن ذلك منه إلا وسيلة ضغط على السوفييت للتسريع بإرسال الأسلحة لمصر وإلا فإنه سيترك الحكم لنائبه الموالي للأمريكيين ، خاصة بعد انهيار الدفاع الجوي في الفترة المذكورة ووصول غارات الفانتوم في فجر يوم 7 يناير 1970 فوق القاهرة ودهشور ..

في تلك الزيارات تكمن تلك الأمراض المتراكمة التي أصيب بها عبد الناصر ، الدليل على ذلك أنه بعد صفقة الأسلحة الكبرى التي عقدها عبد الناصر معهم في زيارته السرية في 22 / 25 يناير 1970 والتي ظهرت بواكرها في أبريل 1970 وأوقفت مصر على أعتاب التحرير الشامل ، عاد عبد الناصر من موسكو في يوليو 1970 بغرض عزل السادات وتعيين نائب آخر ، كان السادات يعلم بذلك فادعى في المطار أزمة قلبية حادة استدعت علاجه ، ثم تدخلت حبة فنجان القهوة التي صنعها السادات بنفسه بعد أن أخرج الطباخ الرئاسي - محمد داود - وتناولها عبد الناصر في فندق هيلتون في 28 سبتمبر 1970 في إتمام بقية المهمة التي كانت تشرف عليها من البداية وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ..

(الرواية منقولة عن الأستاذ محمود الجيار في مكان آخر ، وكذلك من مصادر كثيرة عملت مع السادات ، ويستطيع القارئ معرفة المزيد بقراءة مقال بعنوان " الجمهورية الثالثة ، وتحديات المربع الأول " لكاتب الدراسة على مدونته) ..

في الحلقة القادمة ، سنفتح - إن شاء الله - كتاباً آخر ، يتناول هذه المرة المخاطر الخارجية التي تواجه رئيس مصر القادم ، فإلى لقاء ..

رائف محمد الويشي

سانت لويس - ميزوري - أمريكا

elwisheer@yahoo.com

تابع مقالات سابقة لكاتب المقال على مدونته " ثوار مصر " وعنوانها كما يلي :

www.thowarmisr.com